كانت فكرة هذه المقالة في البال منذ أشهر، في البداية نويت تلخيصها في تغريدات ثم قررت تركها لأختم السلسلة بها مع شيء من التوسع، ثم عندما اقترب موعد كتابتها حصل ما حصل في سوريا وجاء ليؤكد على ما فيها ويثريه كما سيتضح للقارئ، وعلى الرغم من ذلك سأحاول كتابتها كما لو أنها كتبت قبل عدة أسابيع بدلاً من التركيز المفرط على آخر الأحداث، لو كانت مقالة ثانية لتطلبت المستجدات تغيراً جذرياً لكن هذه المقالة تتحدث عن فوضى المستقبل وهو يتضمن ما حصل.

قد تتطلب السلسلة مقالة أخيرة غير هذه كي أعلّق على شبكة الأسباب وأضيف إليها بعض الأفكار التي سقطت سهواً لكن حتى لو لم أفعل ذلك أظن أن الصورة الكبيرة تكتمل مع هذه المقالة وكل ما بقي هو الفروع.

الظواهر والبواطن

تهمة عبادة القضية ليست جديدة لكنها أخذت طابعاً أكثر غثاثةً في ظل الحرب الإرهابية على غزة وكل من وقف معها. إحدى الصور القديمة لهذه التهمة كان بعد اغتيال المراسلة شيرين أبو عاقلة وانتقاداً لما فعله الفلسطينيون من ترحم عليها أو إنزالها في حديثهم منزلة الشهداء. تتخطى المسألة هذا الحد السطحي كما اتضح مع مرور الوقت، هناك تهمة أقدم لا تصرّح بعبادة القضية لكنها تلوم الفلسطيني على مآسيه بسبب بعده عن الدين، وبالأخص عادة شتم الدين أو الرب التي يزعم البعض أنها منتشرة في فلسطين. تلك التهمة سمعتها قديماً ولم ترتبط بحوادث معينة، ومن المرة الأولى بدا لي أنها محاولة للتهرب من الحقيقة المريرة التي يقع فيها جمع من المسلمين تحت كل هذا الظلم على مرأى ومسمع "الأمة الإسلامية" دون أن تحرك ساكناً، وهذا من شأنه طرح أسئلة عميقة عن الدين كله لذا من الأسهل الإيمان بأن هناك علة ما في هذا الشعب. وبما أن الإعلام ومسار الحياة التطبيعية للصهيونية تواجه احتكاكاً أقل عندما يعادي الشخصُ الفلسطينيَ من المنطقي توقع مثل هذه التهم وكل ما ينبت منها مثل زعم البعض بأن لديهم "فوبيا" من فلسطين.

هنا لا بد من التأكيد على أن بعض الفلسطينيين أنفسهم يقعون في حفرة احتقار الذات ويتلقفون هذه المبررات، ومنهم من يدرك بطلانها لكنهم يعتبرونها وجهات نظر يمكن التغاضي عنها عندما تصدر من أصدقائهم من شعوب مختلفة، دون إدراك مدى خطورة انتشار هذا الظن القبيح الذي يسهّل مهمة الصهيونية في سحق الشعب الفلسطيني دون محاسبة.

قد يقول أحدهم بأن الغوص في النوايا لا يصحبه دليل ولا يجوز استخدامه في نقاشات جادة، وفي سياقات ما أتفق مع هذا إلا أن خبرة طويلة في الجدال والنقاش في شتى أنواع المواضيع ولدت عندي قناعة بأن معظم الحوارات ليست أكثر من طبقة سطحية تخفي أسفلها جذوراً تحتوي على ما يحاول المرء قوله فعلاً، ولا بد من كشط المستوى السطحي أو جرفه في بعض الحالات بعد التعاطي معه كما هو. يمكنك قراءة الملحق الثاني في سلسلة الطواف في فلك الواقع لتفهم أكثر ما أعنيه عن تلك المنابع، أو المنطلقات كما أسميتها في تلك المقالة. المفيد في التنقيب عن هذه المنطلقات هو تجاهل النقاشات السطحية التي تتجدد في كل حادثة والوصول إلى المحرك الذي سيولد المزيد من الخلافات مع الوقت، ودون مبالغة أقول أن معظم المشاكل في المنطقة سببها عدم التجرؤ على التعامل مع الجذور الفلسفية للأفكار المنتشرة.

حجتي التي تحث على تتبع الأفكار إلى أصولها مدعومة بتجارب شخصية لا داعي لكتابتها هنا لكن يمكن لأي قارئ بأن يقيسها بنفسه، ومرتع الجدل في أي مساحة للتعليقات على الإنترنت أفضل مكان لقياسها، المطلوب هو تتبع الحسابات المثيرة للجدل وخصوصاً الاتهامات التي تتلقاها ومواقفها في بعض الشجارات الجماعية، ومع الأخذ بعين الاعتبار بعض المعلومات الشخصية التي يكشفها الحساب عن نفسه أو المعروفة في الدوائر التي يتعاطى معها، يمكن للقارئ أن يتنبأ بموقف الحساب لا وفقاً للفكرة المختلف عليها وإنما وفق اصطفاف المجموعات المنخرطة في تلك المشكلة.

كل هذا ممكن على مواقع التواصل التي يعرّف المرء فيها نفسه كلياً أو جزئياً، التعامل المجرد مع الأفكار على الإنترنت مستحيل في أي مكان لا يسمح بإخفاء الهوية بشكل مطلق، قد ينبع ذلك من اختلاف طبيعة الشخصيات المستعدة للخوض في نقاشات دون فائدة مباشرة تعود على الشخصية الإلكترونية التي تتقمصها ولكنه حتماً يعود إلى أن إخفاء الهوية لا يمنع الانحياز لكنه ينزع الشخوص ويجبر الجميع على إدلاء أفضل صورة من الحجج إذا كانت نيتهم في الجدال صادقة ولأن الاتكال على الرصيد الاجتماعي لا ينفع، أعداد متابعين وإعجابات والشخصية المرسومة حتى وإن كانت وهمية كلها عوامل تعدّل مسار النقاشات وتؤثر على تصور المتلقي.

بهذا قد نصل إلى المسبب الرئيسي للخمول سواء من الفلسطيني أو غيره وهو العدمية المقنعة، ولكشف القناع لا داعي للدخول في بواطن العقول، يكفينا أن ننزعه لنجد الوجه المفرغ من المعاني يحدّق بنا بعيون تخلو من الروح البشرية التي تؤمن بشيء أسمى من هذه الدنيا.

قد يتوه القارئ لأن العدمية تعمل مثل ثقب أسود يمتص كل أنواع الأمل والوازع الأخلاقي واحترام الذات وما يأتي معه من إيمان بأن المرء ليس دميةً فحسب، أدعوه للعودة إلى المقدمة ومختصر الكلام ألا وهو أن الكثير من الحجج التي تمنع الحراك ما هي سوى تلك العدمية واليأس وأن الأقنعة قد تتعدد لكن الوجه واحد، وأن تهمة عبادة القضية على الرغم من بطلانها تفضح حقيقة عدم وجود نية صادقة في الانتماء للقضية أو الاكتراث حقاً بأبناء الشعب الفلسطيني. (للمهتم بمعرفة المزيد عن هذه المسألة يمكنه القراءة عن التنافر الوظيفي في الملحق الأول من سلسلة الطواف ومقالة مركزية السمعة كما يمكنه العودة إلى مقالة العمل والشلل التي كتبتها بعد بدء الحرب بشهرين وحذرت من أن عدداً كبيراً من المكترثين ظاهرياً لا يؤمنون حقاً بأولوية القضية وأهميتها، وكذلك يمكن ربط هذه العدمية بالتيار المبهم الذي أشرت له في جزء التصحر السياسي من هذه السلسلة).

الأخرويات والتواريخ الموهومة

بعيداً عن تكفير الفلسطيني وعن أولئك اللائمين والقاذفين والمتهربين مما تحتّم مبادئهم عليهم فعله، وهم في الحقيقة قلة، هناك سواد أعظم من المؤمنين بالأخرويات التي تجعل القضية الفلسطينية أمراً مرتبطاً بعلامات الساعة وآخر الزمان، وهنا يخفي الإيمان الظاهري العدمية المبطنة، وبدلاً من أن يسعى الملتزم دينياً لدعم القضية ولإعطائها حقها من الدعم المباشر الذي يراعي حساسية الوقت عند المقهورين يرتبط الأمر بنهاية الزمان أو بتحقيق آيات لا يتفق المفسرون عليها.

الغريب في هذه المعادلة هو أن الشيعة الذين يملكون أسهماً أكثر في نهاية الزمان وارتباطاً عقائدياً أشد بإحدى أهم علامات الساعة وهي ظهور المهدي لم يأجلوا الدعم بل وجدتهم غزة في أوائل الصفوف المساندة، وبعد فترة اكتشفنا أنهم الوحيدون في تلك الصفوف، بينما كانت الطائفة السنية على الرغم من أغلبيتها وقدراتها التي تفوق الأقلية الشيعية تتفاوت في مواقفها تفاوتاً لم يرتق في أي صورة للدعم العسكري المباشر، ما أعنيه هو أن الإيمان بعلامات الساعة بحد ذاته لا يعمل بشكل تلقائي على تأخير العمل، وهذا يعيدنا إلى المربع الأول من وجود منطلقات خفية لانعدام التحرك المرجو والتي طلبته بشكل مباشر وصريح الحركة الإسلامية السنية التي كانت رأس الحربة في هذه الحرب.

لم تتوقف المسألة على إساءة توظيف الآيات والأحاديث كي يقنع السنة أنفسهم بأنها مسألة وقت بل وصل الأمر إلى عودة صريحة للدجل والتنجيم وظهور شخصيات تحاول التنبؤ بتواريخ معينة لحصول أحداث معينة، ويعكس هذا تخلفاً مريعاً في الوعي والقدرة على التحرك والعمل. بالإضافة إلى التواريخ الموهومة المستقبلية هناك قطعة ضخمة من الأحجية التي تفسر قعود الإسلاميين عن نصرة غزة وفلسطين بشكل عام وهي أوهام عن التاريخ الإسلامي.

لدى الإسلاميين تصور معين عن الحملات الصليبية يختزل تعقيدها وتقلّب التحالفات فيها لتصبح مسألة تسلسل طائفي مقيت يعتبر تحرير فلسطين خطوة نهائية بعد القضاء على الشيعة، هذا التصور الاختزالي كارثي على مستويين، الأول والواضح منهما هو إيمانهم بأن تأخير نصرة فلسطين ليس بذاك السوء، لأن المسألة أكبر من أطفال تطحنهم أنقاض المباني، لا داعي للتأهب من أجل أطفال السنة لأن الإسلاميين يعيشون في سردية تبدو سرمدية والتاريخ لا تحكمه شروط مادية، أي يمكنهم نسخ صفحة من التاريخ دون التنبه لكل الفروق والصفحة التي اختاروا نسخها هي تلك التي ذكرت صلاح الدين. أما عظام العجائز التي يتلفها البرد وأحلام الشباب التي تموت بصمت لا تعني الكثير على رقعة الشطرنج الجيوسياسية، وقد نتفهم ذلك نحن الفلسطينيون لو كان الإسلاميون يحققون شيئاً يذكر يستدعي توفير قدراتهم وتجاهل أعظم عملية عسكرية قامت بها حركة سنية فلسطينية، لكنهم في كل المعايير خارج فقاعاتهم ليسوا سوى أتباعاً للنظام العلماني البارد المطبّع لإبادة شعبنا، الفرق بين الصهيوني الذي يقول أن أهل غزة يستحقون الموت لأنهم تجرأوا على تحطيم جدار الخزان وبين الإسلامي السعودي الذي يعتبر هذه المجازر اختبار وكأن أهل غزة مطلوب منهم شروط مستحيلة لإثبات إيمانهم بينما لا يطلب منه سوى تلقي رسائل المعجبين بقنواته ليتأكد من حسن دينه.

كشف الثغرات في تصورهم يحتاج إلى دراسة منفصلة ودقيقة أما هنا تكفي الإشارة إلى هذه الاختزالية التي تختلط بعدمية دنيوية ظاهرها التسليم بقضاء الله عز وجل وباطنها عدم دفع أي ثمن في سبيل الكتابة على صفحات التاريخ بما يمليه

الإسلام حقاً. يجلس أحدهم في استوديو مكيّف أمام مذيع جاهل في بودكاست يتابعه الملايين، وبدلاً من التفكير الجاد والحديث الصادق عما يمكن أن تفعله الملايين يتحدث المذيع وضيفه عن الفظاعات برواقية مصطنعة. الواحد منهم لا يقدر على تحمل انتقاد عادي في مواقع التواصل الاجتماعي لكنه يتحدث بكل ثقة عن عظمة الإسلام في تهيئة المرء لمواجهة الإبادة وبدلاً من أن يتعلم من صبر أهل غزة وإقدامهم يأخذها حجة تثلج صدره ليطمئن من أن دينه حق وأن المسألة لا تطلب تحركاً مستعجلاً.

المستوى الثاني هو أكثر كارثية من التسويف، لأن التسويف لو بقي على حاله فهو على الأقل يفسح المجال لمن لا يؤمن بضرورته، قد توصل البعض في دراستهم للثورات إلى أن الحاجة ليست لحاضنة مؤمنة وإنما محايدة لا تقف في وجه الثوار. المستوى الثاني الكارثي هو المستوى الطائفي الذي يعتبر القضاء على السلطة الشيعية شرطاً مسبقاً للتحرير، الكارثة تكمن في عرقلة مباشرة لجهود المحور وتجاهل الفروق بين المحور والفاطميين مع قراءة قاصرة لدور الطرفين، وهذا نجده حتى من الفلسطينيين المؤمنين بهذه النظرة الاختزالية وهو ما يهمنا في هذه المقالات، لأن الفلسطيني الأحمق بات يستخدم نفس مصطلحات هذه النظرة القاصرة ونحن الآن في مرحلة يصعب التمييز بين هوية المتحدث، أهو متحدث باسم الجيش الإسرائيلي أم الإخوان المسلمين أم فتح عندما يتعلق الأمر بجبهات الإسناد، ولسببٍ ما يظن الإخواني والفتحاوي أنهما أفضل من الإسرائيلي مع أن تصرفاته تخدم الكيان في كل المقاييس المادية، ولا تنفع الإخواني إلا في فقاعته وأوهامه، كما أن الإخواني يظن بأنه أفضل من الفتحاوي ويعيب عليه أموراً تذم الإخواني أكثر من ذمها لفتح.

لا يمكن الاستهانة بتاتاً بهذه النظرة الاختزالية، هذه النظرة تتفاوت بتعقيدها عند المنظرين لها والمؤمنين بها، وهي هزيلة حتى في أعلى تعقيدها لأنها تتجاهل ما سبق وتزامن ولحق حياة صلاح الدين. ودون الاستهانة بها يجب أن نكمل لنشير إلى أنها من التشعبات العديدة وأن أصلها لا يعود بالضرورة إلى الحملات الصليبية وإنما إلى معتقدات تضع شروطاً خرافية للفوز في المعركة، والتي تظن بأن المسلمين يعيشون في عالم تختلف فيه السنن الكونية والتاريخية والاجتماعية، للأسف لا يجوز التسخيف بالأصل الديني لكن التشعبات الخرافية هذه تستحق الحرق الكلي بعد أن اكتشفنا أنها تدعو للتواكل والقعود والتعارض مع المقاصد، ولا يمكن النظر إليها أبداً وكأنها دليل على الإيمان أو تميز الإسلام، يجب التعامل معها بخطورة أي فكر لطائفة (cult) انتحارية تقنع نفسها تدريجياً بما يتعارض مع كل الحقائق.

نظراً لصعوبة وتشابك أطراف المسألة لن أخوض فيها هنا، حسبي أن أوضح لأي مهتم بالموضوع الرئيسي للمقالات خطورة هذه التشعبات الأخروية والتواريخ الوهمية والاختزالية، وأن سؤالنا الأهم "ما الذي يمكننا فعله" لا يخطر على بال هؤلاء بصيغة سؤال، لأن الإجابة جاهزة وهي ليست إجابة تدفعهم للتحرك المباشر ضد الكيان بأي صورة فعالة وإنما بإثقال التحرك بشروط مستحيلة وانتظار الفرج من أصنام معاصرة.

الخطية والتخلف المرحلي

المشكلة الأخيرة التي يجب التنبه لها قد وجدنا أشكالاً لها في مقالات سابقة، وهي مشكلة عدم إدراك مدى خطورة المجريات علينا مباشرة. هذا الإدراك القاصر له أسبابه التكنولوجية و/أو الربيعية في الأردن، وكي لا أخوض في ما حصل في سوريا بشكل حصري وأتحدث عن التصورات القاصرة للمستقبل التي تسمح للتأخير والتسويف.

الكيان الذي جاء ليذبح المنطقة ويستعبد شعوبها لا يخفي عداءه على أحد، المشكلة في التعاطي معه في هذه الحرب ظهرت في خطّية التوقعات ويشمل هذا المحذرين من خطورته، وفقاً لتحذيراتهم يجب أن يتحرك الجميع لأن الكيان سيبدأ في تدمير غزة ثم ينتقل إلى لبنان، وبعدها قد ينتقل إلى سوريا وإيران وفي تلك الأثناء سيطرد أهل الضفة ليقيم الوطن البديل في الأردن ويتوسع بالتدريج إلى أن يقيم "إسرائيل الكبرى" التي تضم سيناء وتقضم من السعودية.

مجدداً نجد كارثة على عدة مستويات، أولها هو أن هذا التصوّر يعطي العديد من الدول فسحة ومجالاً للانتظار أو عدم التحرك بتاتاً، مثلاً لا يوجد خطر مباشر على دول مثل الإمارات وقطر والمغرب حتى لو تحقق كل ما سبق. حتى في الدول المعنية مثل الأردن ومصر يتولد لدى الفرد انطباعٌ بأن هناك تسلسلاً كما لو أنها درجات متتالية، في هذا التسلسل يبدو أن صمود غزة هو الشرط المسبق لكل ما يلي من توسعات ومؤامرات ويتغذى هذا الانطباع عن طريق الخطأ عندما يتحدث الفلسطيني عن غزة وكأنها الجبهة الأولى التي تتدافع عن الأمة، دون التنبه لما يعنيه هذا عن الأمة.

المشكلة في هذا التسلسل هو أن مفهوم الصمود لم يعد واضحاً تماماً، هل ترك مجموعة من البشر تحت حصار إسرائيلي مصري يعني صموداً أم أنهم ضحايا يتعرضون لأقبح مؤامرة في التاريخ المعاصر؟ مؤامرة تجمع خرافات إبراهيمية وتتقاطع فيها المصالح الاقتصادية لتصبح فئة صغيرة قرباناً على عدة مذابح؟ ولا أعني بذلك الانتقاص من المفهوم المتعارف عليه عندما نتحدث عن الصمود إلا أن هناك شيئاً قميئاً في وقوف المتفرجين بعيداً والتغني بالصمود، نعم أهل غزة صامدون حقاً لكن لماذا طبّعنا حاجتهم للصمود؟ لماذا وقعت عليهم هذه المسؤولية بينما يجلس أصحاب الكروش من كل المنظرين في البودكاستات ويجنون المتابعات والشهرة في نظم الأشعار والتحليلات المتغنية بالصمود؟ وهذا لا يتوقف على الآخرين بل هناك من أبناء غزة أنفسهم من يتاجر بدم وصمود أهله كي يجمع رصيداً إعلامياً أو شهرة ويساهم في تخدير الحشود بتصوير أهل غزة بأنهم أساطير ولا داعي لنجدتهم بل علينا الحذر على أنفسنا بعد سقوطهم، حتى هؤلاء ما زالوا يرتبطون ولو قليلاً بالقضية، أما لو نظرت إلى أحوال هذه الأمة ستجد أن الكثيرين في آخر المطاف اعتبروا الإبادة مسألة جانبية وأن هناك عداوات أهم وأولويات عسكرية أو اقتصادية أهم.

هذا التسلسل أيضاً يتجاهل قدرات الكيان التي لا يمتلكها مباشرة لكنها تتاح له من قبل كل الأطراف المتواطئة في هذه الإبادة، دول مثل تركيا وأردن ومصر توفر له الموارد وتعوضه عن الحصار الذي ضربه عليه اليمن العزيز، ودول غربية مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا توفر له كل ما يحتاج من غطاء قانوني وإمدادات عسكرية.

مع كل هذا الدعم يحاول الكيان تصوير هذه الحرب كأنها حرب على عدة جبهات يحارب فيها وحيداً إلا أن تعريفه للجبهات تعريف عجيب لا تشبهه أي جبهة في تاريخ الحروب المعاصرة، فهو يدك القطاع وجنوب لبنان وبعض المناطق في سوريا واليمن دون أن تتعرض طائراته لأي مضادات جوية، أما عندما ينزل بجنوده أرضاً نجد أكثر التجارب العسكرية رداءة بشكل مطلق ونسبي في الآن ذاته، ومؤخراً في الجبهة السورية جاء التحرك الفاصل من قوى سنية حسمت المعركة لصالح الكيان، لكن أهل السنة والجماعة بنشوتهم الطائفية يتنكرون لهذه الحقيقة الواضحة.

على أي حال المقصود هو أن الكيان لا يتحرك وفقاً للسيناريو الخطي الذي نحذر بعضنا منه لأن الشركاء يوفرون له ما يمكنه من حرق المراحل، في المقابل يعني الحصار أن الصمود مهما كان أسطورياً لكنه سيصل بشكل حتمي إلى هزيمة منكرة لولا الضغط من المحور ومن المقاومة الفلسطينية، وفي وضع مثالي هناك ضغط من الشعوب لكن لو كان الضغط واقعاً لما اضطررت لكتابة هذه السلسلة لتشخيص أسباب انعدامه، وكانت المقالات تكتيكية وأقل سوداوية.

المستوى السيء الآخر هو أن بعض قدرات العدو التي كشفها في هذه الحرب لا تلقى اهتماماً كافياً وتفكيراً ملياً في تعطيلها، أورد ما أظنه الأهم منها:

أولاً الاغتيالات وقدرة الكيان على ارتكابها في عدة دول دون أن يندد المجتمع الدولي أو العربي بها، لو كان هناك عاقل في أي مستوى أمني رفيع في أي دولة عربية يجب أن تكون أولويته تحصين قامات دولته من مصير مشابه ورصد أي شبهة لاستهداف الناشطين عندما تأتي اللحظة الحتمية من الصراع المؤجل مع هذا الكيان. في السياق الأردني لا يصعب تخيل محاولات للتحريض على حرب أهلية على أسس عنصرية واغتيال الشخصيات التي تحاول إخماد تلك الدعوات وإلصاق التهمة بالأطراف المقابلة. لهذا يجب على أي فرد ومجموعة تؤمن بالعداء للكيان أن تجعل أقصى أولوياتها السرية وإخفاء الأثر الواقعي والإلكتروني وتحصين نفسها من الاختراقات.

ثانياً الهجمة الإرهابية باستخدام أجهزة الاتصال، هذه الهجمة تعني أن كل المدنيين عرضة للخطر وأن أبسط الأدوات قد تتحول إلى متفجرات. التنبه لمثل هذا يتطلب تحصيناً وفحصاً لكل المستوردات وتتبعاً للخطوط اللوجستية المعهودة والجديدة، الأهم من ذلك هو رفض تطبيع هذه الهجمة وكذلك يجب رفض محاولة الكيان لترميم صورة استخباراته بعد تعرضه لأكثر هجمة مذلة على المستوى الاستخباراتي، لم يسبق لأي كيان أن تتعرض لضربة من مجموعة تحاصرها وتضعها في أسوأ الظروف المعيشية، هذا الفشل الاستخباراتي لن يمحوه أي تقدم في مجال ومكان آخر إلا إذا سمحنا له للإعلام بفعل ذلك. لذلك يجب على أي فرد ومجموعة تؤمن بالعداء للكيان ألا تسمح لإرهابه بالتغطية على عبقرية وصمود أي مقاومة، فهو قد ارتكب أفظع الجرائم واخترق كل الخطوط الحمراء ومع ذلك ذاق الأمرّين عندما حاول التوغل في جنوب لبنان. ثانياً يجب على المجتمعات المدنية والحقوقية مطالبة حكوماتها بتطبيق استراتيجية متكاملة لحماية الدولة من هذا النوع الجديد من الإرهاب الذي يقع مع غطاء دولي. بل يجب على أولئك الذين تقبلوا الكيان

واعتبروه دولة طبيعية أن يفكروا بجدية بهذه الواقعة وإعطائها حقها من الحذر لكنهم لسبب ما أسود على العُزّل في دولهم ونعامات عندما يصدر التهديد من الصهيوني.

وهذا يستدعي النقطة الثالثة والرابعة، وهي نقاط علي أن أذكر آخر المستجدات كي أشير إليها، النقطة الثالثة هي أن الكيان، سواء بمؤامرة مباشرة أو بتلاقي المصالح، قادر على التقدم وإنجاز شيء من التسلسل الذي يحذّر الجميع منه بطريقة يحتفل بها حتى أولئك الذين يزعمون أنهم ضده، بل حتى من يتعرضون للإبادة، وهذه الحالة الهستيرية لا يمكن الاستهانة بها أو الظن بأنها استثنائية، فهذا تدشين لمرحلة جديدة من الصراع لم يعد يخجل الخونة من التصريح بأنهم في خندق الكيان مباشرة.

بالطبع هذه الظاهرة عصية على العلاج المباشر، لكن أي مهتم بمواجهة الكيان يجب أن يفكر جدياً بهذا العالم الجديد الذي نعيش فيه، وهو العالم الذي يحتفل مع الكيان بعد سنة كاملة من إبادة الشعب الفلسطيني. وهذه الظاهرة ليست وليدة اللحظة ولا يجوز نسبها كلياً إلى قدرة خارقة للكيان على العبث بالعقول، لأن معظم الفرحين معه حالياً يتنكرون لهذه الحقيقة، بينما كان أولئك الفرحين وقت وقوع الجرائم في النقطة الأولى والثانية يجاهرون بذلك كان الكثيرون من الفرحين اليوم يقولون أنهم فئة قليلة لا تمثل الثورة أو الثوار، وهذا كله يعني أن المسألة معقدة وأن الكثيرين يجلسون في خطوط متباعدة لكنها كلها تدور في فلك الصهيونية، وهذا يشمل بعض أهل غزة الذين باتوا أقرب إلى الهزيمة بكل ما تعنيه الكلمة أكثر من أي وقت مضى بسبب هذه المستجدات، وبدلاً من الجدية في التعاطي مع هذه المستجدات نجد برمجة الربيع قد أثمرت ثمرها الفاسد والمفسد.

الخطر في هذه الظاهرة هو في التعامي عن التقاطع مع الصهيونية، لا يعقل أن نصف فرداً في غزة يقف مع المقاومة المسلحة صهيوني بأي تعريف للكلمة، لكن المسألة أعقد من ذلك، وخصوصاً لأن الفلسطيني لا يعبد القضية كما يتهمه أبناء ملته فهو قادر على تجاهل معاناته ظناً منه أن دينه يطلب منه ذلك، لا يمكن وصف أي مما يحصل بأنه أقل من فتنة، وعندما نقول أنها فتنة يجب أن نحذر من تجنبها كلياً، فنحن في زمن تصبح الفتن الداخلية أسلحة بيد الأعداء الخارجيين، ويصبح القعود هو بذاته جزء من الفتنة لأنه يطبّع شتى أنواع الإرهاب وغسل الأدمغة الذي يجعل الملايين تحتفل بالإرهاب ولا تلتفت لعجلة الزمان ومداولة الأيام وانقلاب الأدوار الحتمي.

النقطة الرابعة والأخيرة هي في أن الكيان بسبب الإمدادات العسكرية اللامتناهية والغطاء السياسي الذي يحجب الشمس بظلمه قادر على استغلال ظروف الدول المعادية وشن هجمات تدمر كل القدرات العسكرية مما يجعل الدولة مستباحة بشكل مطلق، ولو أن العالم اختلف قليلاً لكان من الطبيعي أن تتمدد الدول المجاورة كلها وتختفي سوريا بلمح البصر، وربما هذا ما قد يحصل في آخر المطاف إذا استمر العبث والجنون الحالي.

هذه النقطة منفصلة عن السابقة لكنهما يجتمعان في سياقات معينة، لو كان الجميع صادقين في العداء المطلق للكيان ولو كانت الإبادة قد تركت أثراً في النفوس كما يجب لما ارتاح أي شخصٍ لمثل هذه الهجمة، لكن التقاطع المصلحي المرحلي لهذه الأمة القذرة مع الكيان جعلهم يتجاهلون خطورة ما حصل. وهذا يعني أن تكرار أمرٍ مشابه لم يعد ضرباً من الخيال، وإذا ظن أحدهم بأن المسوغات الرديئة المنتشرة التي أخذت هذه الاستباحة وقلبتها إنجازاً حصرية على سوريا ما عليه سوى أن يفكر لأبعد من خمس دقائق.

لقد تعمدت عدة جهات إعلامية على تمييع التطبيع وتصوير الحكومة السورية كأنها صنو للكيان، وغسيل الدماغ هذا لم يحصل فوراً بل أخذ عدة سنوات يصعب عدها، لو افترضنا أن الجيش السوري انهار بهذه الصورة قبل خمس سنين مثلاً، وتحرك الجيش الصهيوني تماماً كما فعل الآن، هل تظن أن الناس ستكترث أكثر؟ صورة الكيان قبل الإبادة كانت أحسن منها اليوم ولكن قباحة سنة من الإبادة لم يمنع الحمقى من التسخيف بهذا الإنجاز للكيان.

هذا كله يجب أن يُفهم في معادلات إقليمية أكبر، الطمأنينة الظاهرة للقيادة الجديدة لسوريا لا يمكن تفسيرها إلا بعمالة أو بأمل يعتمد على وعود أو خرافات، سيثبت الزمن أي منها هو الأصح لكن حتى ذلك اليوم يجب أن نحاسب من كان مسؤولاً على تطبيع الكيان ونحذر من هذه التقاطعات التي قد تنال من أي دولة أخرى. غداً قد نجد الطيران الإسرائيلي يقصف مستودعات أسلحة في أي دولة عربية ويستبيحها وبدلاً من تحرك وتنديد سنجد تجاهلاً أو التلميح لأن ذلك إنجاز لطرفٍ ما.

المزيد من الخيال لا يضر

بدلاً من الإيمان بالتسلسل المباشر والعمل على ذلك الأساس يجب على كل فلسطيني ما زال يؤمن بقضيته أن يفكر بكل السيناريوهات، كما أن أحد أهم الدروس من الطوفان هو في استباق الأحداث وعدم التفكير بمنطق دفاعي بحت كما يدعو لذلك الإسرائيلي عزمي بشارة.

عودة إلى تصور السيناريوهات لا بد وأن تكون واقعية وتعتمد على الأدلة المادية والسوابق التاريخية ذات صلة والخروج من التصور الاختزالي الأيوبي، كما يجب الاعتبار من التاريخ مع إبقائه في خانة التاريخ وعدم السعي الأعرج لإعادة بعثه من الموت. الخيال المطلوب هو نقيض الخرافات والهلوسات المنتشرة، وبوصلته يجب أن تكون دائماً وأبداً فلسطين بكل مترٍ فيها، كل أسير يجب أن يحرر وكل شهيد يجب أن ينال حقه في الدنيا، وهذا لن يحصل لو اعتمدنا على الأفكار التي أوصلتنا إلى هذه المرحلة أو شكلت عالم ما قبل الطوفان.

لقد فتح الطوفان كل الاحتمالات على مصراعيها، هذه السلسلة تصل إلى نفس النقطة التي وصلت إليها سلسلة الطواف ولا أجد داعياً لتكرار الكلام لذا أدعو القارئ للاطلاع على مقالة العنقاء تكره الشفاء. أما بما يخص هذه المقالة فخلاصة القول هو أن الموانع من التحرك هي العدمية التي صارت تتقنع بعدة أقنعة والإسلام السياسي أحدها مهما بدا ذلك مخالفاً لما يظن البعض، وأن التسويف والتأخير بكل أشكالهم (سواء لعبة صلاح الدين +NG أو استبدال القوم أو تربية جيل جديد) والتنجيم (عندما يعتبر المحللون والمثقفون مهمتهم الوحيدة التنبؤ بحدث مستقبلي دون الحديث عما يجب على القارئ الفعل عند وقوعه ويصبح كل شيء لعبة تحزير ليجمع المحلل أو المثقف رصيد المنجم) والتخدير قد أصاب المعظم في هذه الأمة والأمر يشمل الشعب في الأردن بشكل خاص ومنقطع النظير، في هذه الدولة يبدو لي أن المنطلق الرئيسي عند الأغلبية هو الوصول إلى استنتاج بائس يائس يمنع أي تصوّر للتحرك ويرفض أي اعتبار فيه احترام للذات وترقيتها لتكون فاعلة بدلاً من المفعول بها، من هنا يجب أن يبدأ العمل العكسي، لذلك أي نقاش يخوضه القارئ بعد قراءة هذه السلسلة يجب أن يبدأ بهذه الخلاصة، يجب أن يواجه الآخر بهذا السؤال البسيط والمباشر: هل هناك أمل ومجال للعمل أم أنك تحمّل شخصاً آخر المسؤولية؟